دورنا في الكفاح الوطني

بقلم
محمد أبو الحسن
بالأزهر الشريف

تمهيد

وضعت الحرب الكبرى الثانية أوزارها ، والقت الأمم الغالبة والمغلوبة سلاحها وسكتت أصوات المدافع والبنادق ، وابتدأ كل شيء ساكنا في جميع الميادين بعد أن باءت الفاشية بالهزيمة ورجعت من الميدان بالخذلان . ولكن لا يسكت دولاب النزاع ، ويقف صوت المذياع ، بل ليشهد العالم ويسجل التاريخ لونا آخر من ألوان الحياة ، بدخول الأمم جمعاء ـ في الأقطار المتقدمة والمتاخرة القوية والضعيفة ـ في مرحلة أخرى من مراحل النضال والكفاح . . . نضال مهما اختلفت مظاهره ، وتنوعت أشكاله ، وتعددت أسماؤه ، فانه متحد في الغاية ، متفق في النهاية لاتفاقه في الهدف وهو تحرر الانسانية من آلام العوز ومخاوف المرض ومصائب الجهل ، والانطلاق من القيود التي فرضتها الأنظمة الرجعية البالية .

على أننا لا نستطيع أن نفرق بين نضال العالم وكفاحه بعضه عن بعض إلا في الظاهر فقط ، حيث نرى نضال الأمم القوية يتمثل في اتجاهين متباينين ، يميني ويساري رجعي وتقدمي ، ينظر أحدهما إلى العالم نظرة انسانية عالية ، تدفع به الى الامام ، كي تنتهي مجازر الحروب وتنقطع أوصال الاستعباد بينما الثاني لا يعبأ بالقيم الانسانية ولا يقيم وزنا للدماء التي أراقتها البشرية طوال السنين الماضية في سبيل تحررها فيعمل جاهدا لاعاقة عجلة الحرية عن الاندفاع

أما في الامم الضعيفة وتلك التي يسودها الاستعمار الاوربي والامريكي فيمتاز نضالها عن غيره بطابع الوطنية ، واستعمال الكفاح ضد تدخل الاجانب والمستغلين فتطالب بحق تقرير المصير ، وإقامة الحكم الذاتي في بلادها ومنع السيطرة الاجنبية والنفوذ الغريب ، حتى تتمكن من ان تعيش كما يجب ان يعيش الانسان

على أن هذه التفرقة التي يمتاز بها الصراع بين الامم الضعيفة والقوية ما هي الا ظاهرية كما قدمنا . أما في الواقع فالارتباط وثيق والصلة محكمة ، بين نضال الشعوب قويها وضعيفها ، على تباعد أجزائها وتباين ألوانها ... أي أن نضال الطبقات الشعبية في البلاد المستقلة القوية مرتبط أشد الارتباط بنضال شعوب المستعمرات والدول

غير المستقلة ونحن نلاحظ من تتبعنا لكفاح الامم فى مراحله المختلفة أن الغاية التى تسعى اليها البشرية هى الحرية...

والحرية بمعناها العام تشمل التحرر من كل شيء يخيف الانسان سواء أكان ذلك مرضا أم حربا . جهلا أم فقرا ، وبالجملة يشمل التحرر من كل ما يعكر صفو الحياة ولا يوجد شيء يعيق الانسانية عن بلوغ هدفها والوصول إلى غايتها، مثل الاستغلال وهو فى مظهره الوقوف فى طريق الطبقات الشعبية ومنعها من ان تمارس حقها اللائق بكدها وتنعم بحياة سياسية واقتصادية تساوى ما تبذله من عرق ودماء !

أما مشاكل الشعوب الضعيفة والبلاد المستعمرة ونصف المستعمرة فهى الفقر والجهل، والمرض الناشيء عن النظم الاقطاعية وشبه الاقطاعية ...التى يكسر الاستعمار بعض اجزائها ويبقى على معظمها حتى تظل البلاد المستعمرة فى تأخر اجتماعى يمكنه من استغلالها واستنزاف مواردها فنضال هذه البلاد اذن نضال ضد الاستعمار ، ولكنه نضال ضد بقايا الاقطاع والاشكال الاجتماعية الرجيعة الاخرى . سواء اكانت فى الاقتصاد أو السياسة - بهذا يلتقى صراع الشعوب ضد ظالميها، ويتقابل كفاحها ضد العقبات التى تقام عمداً فى طريقها - وتتحد فى استهداف القضاء على الاستعمار لانه من اكبر اسباب التفرقه بينها ومن أشدها اثارة للحروب والمنازعات .

ولقد يدرك القارىء من هذه الكلمة الموجزة صدق النظرية الماركسية وعمقها ، تلك التى ترى العالم وحدة متماسكة تتأثر كل بقعه منه - بعدت أو قربت - بالاحداث والحركات التى تدفع أى جزء من أجزاء العالم . فعنايتنا بالحركات الحرة فى غير بلادنا وتأييدنا لها ،عناية بقضيتنا نحن وتدعيم لكفاحنا الخاص بنا .

ومهمة الكاتب المصرى الحر أن يدرس الانعكاسات الواقعة من ظاهر المجتمع المصرى ليبين المتناقضات التى يسير عليها . وإظهار تخلخلاته ، والكشف عن أوجه الانحلال والفساد فيه للقضاء على أسبابها ، واستئصال جذورها ومكافحة أنواع الطغيان والاستغلال ، والانتقال بالقضية المصرية من الميدان الخاص الى الميدان العالمى ، وربط هذا الكفاح بما فى العالم من نضال وكفاح ،والانتقال بمشاكلنا من وضعها الحالى إلى جعلها جزء من كفاح العالم فى سبيل التحرر

ولقد رأيت أن رجال الدين المصريين عامة . وطلبة الازهر الشريف خاصة أحوج ما يكونون إلى الخروج من العزلة القاتلة التى يعيشون فيها...وأجدر مايكونون بأن يتعهدوا الرسالة الفكرية التى نيطت بهم تعهدا صحيحا سليما .. لذلك رأيت أن أشرح بعض الجوانب من الأوضاع العالمية والمحلية وأبين دور رجل الدين من هذا الصراع الدائم ، وادعوه إلى أن يقبل على مسئولياته الوطنية وواجباته العامة بوعى سليم وادراك نافذ وشجاعة فكرية ... أن رجال الدين من صميم هذا الشعب ... لم يخلقوا فى معزل ولم يولدوا فى صوامع ... أنهم اما مع الشعب حقا يحسون آلامه ويؤمنون بآماله ، لأنهم من جماهيره المخلصة ، وأما منضمون إلى صفوف أعدائنا ، ومطويون تحت لواء المستعمر .. فليس هناك مجال اذن للحيدة أو الانعزال ...

على أننا سنستعرض — قبل البحث فى الحركات التحريرية المصرية — أنواع المصارعات والحركات القائمة فى بقية العالم ، لنعطى صورة عامة .

وقد كان لتضارب القوى الاقتصادية والسياسية أكبر الاثر فى خلق هذا الصراع الذى تشهده الانسانية اليوم بين معسكرات العالم المتباينة والذى يتمثل فى المصارعات التى سنتحدث عنها فى الفصل القادم .

الصراع بين اجزاء الاستعمار العالمى

(أ) الصراع بين الاستعمار الانجليزى والأمريكى

تكاد تتكون الظاهرة الأساسية التى يمتاز بها هذا الصراع ، أنه صراع بين قوتين رجعيتين كبيرتين . فأمريكا الرأسمالية وصلت فى هذه الحرب إلى مرحلة كبيرة من الانتاج تعد أخطر مرحلة فى تاريخ الدولتين الرجعيتين ، وهى الحالة التى يعبر عنها ماركس بقوله «إن مجتمعا وصل إلى هذه الدرجة الضخمة من وسائل الانتاج والمبادلة ليشبه الساحر الذى لم تعد له قدرة السيطرة على قوى الجحيم التى أحضرها بدعائه» فقد زادت القوى الانتاجية زيادة كبيرة ونمت وسائل الانتاج والمبادلة نموا لم يسبق له مثيل فى تاريخ الانتاج الرأسمالى حتى أصبحت كلتا الدولتين على شفا أزمة اقتصادية جارفة تحاول كل دولة منهما أن تتخلص منها وتخرج سالمة على حساب الدولة الاخرى . فانجلترا تبسط سلطانها على معظم أسواق العالم مع تمتعها بنفوذ مطلق فى مستعمراتها الواسعة . وتحكمها فى منطقه الاسترليني التى لا يمكنها أن تتعامل مع أى دولة غير انجلترا . فاذا أرادت مصر أو الهند أو العراق مثلا أن تبيع محصولاتها فلا يمكن أن تبيعها لغير الانجليز كما أنها لا تستطيع أن تستورد سلعا من غير الاسواق الانجليزية . ومعنى ذلك عدم الاتجار مع أمريكا التى باتت تشكو من تضخم الانتاج وزيادته ، والتى يعنيها تصريفه فى الاسواق الخارجية حتى تتمكن البيوت المالية ، وأصحاب المصانع ورؤوس الاموال من أن يربحوا من وراء هذا الانتاج اذ أن غرض الرأسماليين من انتاج السلع هو الحصول على أكبر قدر ممكن من الارباح وليس بحال اخراج السلع لمنفعة المواطنين .

وانه لمن الممكن لامريكا أن تحول الانتاج الامريكى إلى أسواقها الداخلية فينتعش الشعب ويعمه الرخاء . ولكن ليس ذلك غرض الرأسماليين من انتاج السلع فلا يهمهم شبع شعوبهم ورخاء بلادهم بمقدار ما يهم ملء جيوبهم وزيادة دخلهم . وإذا كان الرأسماليون الأمريكيون لا يريدون رخاء لشعبهم ، واذا كانت انجلترا تسيطر على أسواق المستعمرات ومنطقة الاسترليني ، فلا شك أن الانتاج الأمريكى سيتكدس ويتعطل ، وستواجه أمريكا مشكلة داخلية حادة هى تعطل ما يزيد على ١٩ مليون عامل وهنا تكون الطامة الكبرى والمصيبة العظمى إذ معنى تعطل هذا العدد أن يقل الانتاج بمقدار القوى المعطلة وأن تقل قدرة الشعب عن الشراء

وبالتالى تقل الارباح التى يمكن أن يجنيها الرأسماليون وهم المسيطرون على الحكومة والموجهون لسياسة الدولة الخارجية والداخلية .

فإذا لا بد من الصراع بين انجلترا وأمريكا للسيطرة على أسواق العالم التجارية وها نحن نرى بوادر هذا الصراع من خلال الصيحات التى ينادى بها الماليون الامريكيون عن حرية التجارة وفتح باب الاسواق الخارجية فى وجه البضاعة الامريكية بدلا من احتكار الاسواق .وليس طلب انجلترا من أمريكا قروضا ومعارضة بعض البيوت المالية الامريكية إلا أثرا لهذا الصراع العنيف .

ومما يزيد الطين بلة ويوسع الهوة بين الدولتين اعتقاد البيوت المالية الامريكية أن تدعيم الحكومة العمالية بالمال معناه تدعيم سلطان الاشتراكية فى أوروبا وهذا ما تخشاه الرأسمالية الاحتكارية .

بيد أنى أحسب أطمئن أولئك الامريكيين — ولا شك أنهم مطمئنون — إلى تصرفات حكومة العمال الإنجليزية التى لم تخرج عما رسم حزب المحافظين من خطط استبدادية ونظرات استعمارية وأحدث أخبارها حماية الاستعمار البريطانى لمصالح الاستعمار الهولندى فى أندونيسيا واستعماله الرصاص والنار ضد شعب يريد حريته وسعادته وفى الهند الصينية وسواهما .

(ب) الصراع بين الاستعمارين الفرنسى والانجليزى

لم ينقل فوز الأحزاب اليسارية فرنسا نقلا تاما من جانب الدول الرأسمالية الى جانب الدول الاشتراكية فرجعية ديجول وأنصاره ما زالت على فرنسا فى سياستها الخارجية وأوضاعها الاقتصادية لذلك وضعنا هذا الصراع فى قسم المصارعات الاستعمارية (١) . فعلى الرغم مما نشاهده فى حياتنا اليومية من الاتفاقات الظاهرة بين الانجليز والفرنسيين إلا أننا لا بد واجدين أنواعا من الصراع بين هاتين القوتين تبدأ بمشاكل الشرق الأوسط وتنتهى بضعف الانتاج الفرنسى . فالمواقع الاستراتيجية فى سوريا ولبنان وغيرهما من البلاد التى ترزح تحت الانتداب الفرنسى هى فى الواقع ضرورية لحفظ كيان المستعمرات الانجليزية فى الهند

(١) كتبت هذا البحث قبل استقالة جنرال ديجول وتأليف فليكس جوان — وبعد تخلى

والشرقين الأوسط والأدنى لذلك شاهدنا انجلترا لابسة مسوح الرهبان فتدخل سوريا ولبنان فى ثوب المنقذ الانسانى والمدافع عن حرية الشعبين العربيين ولكن الواقع بين لنا ان الاماكن الاستراتيجية هى التى أوحت للانجليز بما أوحت فشاركت الاستعمار الفرنسى أوزاره وتحملت الى جانب اجرامها فى حق المستعمرات الواقعة تحت انتدابها ـ اجراماً وأضافت الى صحيفتها السوداء سواداً ودخاناً .

وثمة مشاكل اخرى متنوعة بين الدولتين الاستعماريتين فالدولار الفرنسى وارتباطه بالاسترلينى وضعف الانتاج عقب حرب جباره أهلكت الحرث والنسل وتطلع انجلترا الى الاسواق الفرنسية ، وامتداد النفوذ الانجليزى فى المناطق الفرنسية كل ذلك كفيل بأن يجعل صراع الدولتين على أشده ولا شك ان الأيام القريبة ستنبؤنا بكثير من المصارعات بينهما وغدا سينظر العالم الى آثار التناطح بينهما اذا لم يوفق اليساريون فى كلا البلدين الى رتق الهوة وأكبر أملى ان تتجه فرنسا خصوصاً بعد تولى الاشتراكيين والشيوعيين أمرها ـ وجهة سليمة .

الصراع بين اقسام الشعوب ذاتها فى سبيل الحياة الحرة والديموقراطية الصحيحة:

ولا يفهم مما سبق ان الصراع قائم بين الرأسماليين فى كل دولة ، أو ان التوافق حادث بينهم ـ فالواقع ان هناك صراعاً أعنف وأعمق ـ يضرمه تطور المجتمع فى هذه البلاد جميعا ـ فحيثما يكون مجتمع منقسما الى طبقات ـ يكون هذا الصراع مشبوبا

ولا شك ان هناك صراعا دائما بين طبقتى العمال والفلاحين من جهة والبرجوازيين من جهة اخرى بحكم ما بينهما من خلاف واختلاف وتناقض وتباين فالبرجوازيون يسرقون من العمال مجهودهم ويأكلون اجورهم ويمنعون عنهم ثمرة قواهم . نسجوا الحرير ليلبس الأغنياء وبنوا القصور ليسكن المترفون وصنعوا الحياة ليسلبوا حق الحياة فلا غرو اذا وجدنا الصراع الطبقى بين القوتين يكاد يؤدى باحداهما . ولن يكون البقاء الا للقوة الفتية النامية ومن هنا نجد الجماعات الشعبية تتكتل فى اتحادات قوية لتصل الى الحكم طريق الحياة وسبيل التشريع . ونحن اليوم نرى أثر هذه الجموع الشعبية فى اتحاداتها المتماسكة وقوتها الثابتة ومصارعتها لخصومها الجبناء . ففى فرنسا نجح الحزبان الشيوعى والاشتراكى نجاحاً تاريخياً وفى انجلترا فاز العمال على المحافظين فوزاً ساحقاً وفى اليونان يتحد الحزب الشيوعى

ورجال اليسار ومن ورائهم جموع الشعب الزاخرة ضد الرجعيين وأنصارهم من الانجليز والامريكان وانا لنسجل اللوم لا بل الخزى والعار واللعنة والشنار على انجلترا وامريكا اللتين نصبتا من دولتيهما أعداء للشعب ولحركة التحرير اليونانية فقد تدخلتا بقواتهما لنصرة أحزاب اليمين وخوانة البلاد ضد الحرية وارادة الجماهير.

أما يوغسلافيا فقد تولى المرشال تيتو زمام الحكم عن جدارة واستحقاق ولأجل ان نعطى فكرة صادقة عن المجاهدين اليوغسلافيين نثبت هنا قول مستر تشرشل فى مجلس العموم البريطانى « ان الشيوعيين اليوغوسلافيين كان لهم الفخر فى ان يكونوا أول من بدأ بمقاومة المحتل الغاصب »

وفى اسبانيا بدأت حركة المقاومة السرية تشتد ضد ركن الفاشية فى اوروبا الجنرال فرنكو .

وفى الارجنتين قلب الثوار حكومة الفاشيين .

وفى البانيا أقصى الشعب الملك زوغو الذى فر من البلاد إبان الاحتلال تاركا الشعب يجاهد ويناضل فى سبيل البقاء وقد تكونت الجبهة (١) الوطنية تحت زعامة انور خوجه لتحقق للشعب آماله وتدفع به الى الامام .

وفى فنزويلا نشبت ثورة حامية بين الضباط الشبان ورئيس الجمهورية الذى أسقط حتى يتوصل الشعب الى ايجاد رئيس منتخب من الشعب .

وفى الصين انتهت الحرب الاهلية بين جيوش الشيوعيين الظافرة تحت قيادة الزعيم الشعبى الكبير (ماووتسى تونج) وبين حكومة الاستبداد المركزية بقيادة كاى شك وهنا تجب ان نسجل على الامريكيين تدخلهم لمساعدة كاى شك ضد الاحرار ودعاة الانقاذ .

وفى ايران تمكن الحزب الديموقراطى من تحقيق الاستقلال لأذربيجان وتخليصها من نير النظام الايرانى .

الصراع بين الكتلة الرأسمالية والكتلة الاشتراكية

ليس هذا الصراع نوعاً من المصادفات العوجاء ولا نتيجة للظروف الغربية ولكنه مسار للتطور الذى قضى على الانسانية بالسير من مراحل الشيوعية البدائية

(١) سماها فى الاخير الاشتراكية ثم البانيا حولت الى جمهورية شعبية .

والمجتمع العبودى والاقطاعى والرأسمالى الى مرحلة الاشتراكية فى الانتاج فهناك فى بعض أجزاء العالم يكون المجتمع الاشتراكى من الشعوب الاوربية الحرة التى تنعم بالديموقراطية الحقة كبولانده ، وفنلاندا ، وبلغاريا ، ورومانيا والمجر ، وروسيا السوفيتية ، واتحاد الجمهوريات السوفيتية الأخرى . يقابل هذا المعسكر ما يعرف بمعسكر الرأسمالية والاستعمار البريطانى ، والامريكى ، والفرنسى ، والهولندى ، وغيره من بقية أجزاء العالم المتوحش ، المحكوم بالنظم الفردية التنازعية

ولقد عاش المعسكر الشعبى فى سلام واطمئنان داخلى ، نتيجة للنظم الديموقراطية التى يسير عليها ، فان علاقته بالمعسكر الرجعى لا تزال فى اضطراب وتقلقل نظرا لمطامع الرجعية العالمية واستعمالها أساليب الخداع والنفاق فى استغلال البشر وتمويق المكافحين من أجل الحرية والديموقراطية وذلك يتعارض بطبيعته مع المبادىء الانسانية الشعبية التى تمانع فى كل حركة دنيئة يقصد بها استغلال الانسان للانسان وإذن فلا حيرة ولا دهشة اذا رأينا مؤتمر الوزراء الخمس ينفض بالرغم من الجهود التى بذلها الرفيق « مولوتوف » فى سبيل إطالة مدة المؤتمر حتى يتمكن من الاتفاق على المسائل التى لم يتم بحثها . وليس بغريب ان يصدر التلاعب بالمعاهدات والمقررات من أمثال بيفن وبيرنز ممن درج فى الأوساط الرأسمالية وتغذى بأرزاق العبيد ، عبيد المستعمرات التى يملكونها والبلاد التى يحتلونها . فيتفقون ويؤولون إزاء مقررات صريحه . ومعاهدات واضحة حددت فى بوتسدام وقررت فى برلين كما أننا سنسمع الكثير من الاخبار عن ألاعيب الرجعية العالمية التى ترمى الى إعاقة القوى الشعبية عن السير الى الأمام والعمل لتحرير البشر ومكافحة العبودية . وسوف نسمع كثيراً عن الحيل الشيطانية والمهازل الصبيانية كتلك النداءات التى صدرت من أبواق الجرائد الاستعمارية فى فرنسا وانجلترا وأمريكا عن ما يسمونه مشروع الصداقة الغربية ، والذى يراد به جميع الدول الاستعمارية الواقعة فى غرب اوروبا فى شبه اتحاد يهدد القوى الشعبية الاوروبية كما انه ليس ببعيد ان تستعين جامعة الدول العربية بهذه الكتلة الغربية الرجعية فاذا هى بلغت هذا المصير أصبحت اخطبوطا للاستعمار والصهيونية وحرباً على الشعوب العربية بدلا من ان تكون عوناً للتحرير ونصيراً على المستعمرين.

بين المستعمرات والمستعمرين

هـذا لون آخر من الوان المصارعات بين أنصار الحرية والقوى الرجعية . بين قوى فتية حرة وبين كتل استعمارية رجعية هدامة . أعقب الحرب العالمية الاولى . واســـتمر بين الحربين عند ما شعر المستعبدون بالأغلال تحز فى أعناقهم والقيود تدمى أعقابهم . ولـكن مثل هذا الصراع من جانب العبيد كان يقتل فى المهد ويقضى عليه وهو وليد . وذلك لشدة سيطرة الاستعمار واستعمال الخداع والمـكر تارة، والقوة والمدافع تارة اخرى .

ونظراً لاستقرار الحالة الدولية بعد هذه الحرب ، واتصال المستعمرات بدعاة التقدم العالمى ، وعطف العالم الديموقراطى على الحركات التحريرية ، وانهزام بعض الدول المســتعمرة . واخيراً لنمو الروح الوطنية وتيقظ الوعى القومى بين العبيد ، سكان الـــكفور ، وظلال القبور . بعـد ان سمعت بمواثيق الاطلنطى وبالطه وسـان فرنسسكو . هبت المستعمرات ـ عبيد الزمن وأرقاء القرون ـ فى كل بقعة لتكسر القيود وتحطم الاصفاد ،قيود الاستعمار ، وأصفاد الاستغلال ففى اندونيسيا أعلنت الجمهورية الوطنية الحرب المقدسة على الاستعمار الهولندى وشريكه الانجليزى

وانه لمما يحز فى النفس ان تعمد انجلترا باسطولها الى محاصرة اندونسيا وتصويب بنادقها ومدافعها وطائراتها الى قلوب الاندنوسيين .

ألا فليسجل التاريخ هـذه الصفحـات السود من تاريخ الانجليز . وان انجلترا عدوة للحرية ، وان حكومة العمال . وحكومة العمال بالذات خانت قضية العـدل ، وقضية العمال .

أما فى مصر وسوريا ولبنان وفلسطين وبلاد العرب فقد ابتدأت الطليعة الواعية من الشعب وجماهير العمال ترسل صيحاتها ضد الاستعمار وأنصاره من خونة البلاد.

كما ان بقية بلاد المستعمرات فى افريقيا وآسيا وغيرها أخذت فى تنظيم كفاحها وارسـال نداءاتها ضد الاستعمار .ففى كينيا ، والهند ، والصـومال ، والسودان ، واوغندا ، وتنجانيقا . ونياسلاند صيحات حارة وصرخات حادة ، سوف تثمر . ولا بد من ان تتحرر . لأنها آمنت بعدالة مطلبها . ووضعت أصبعها على أعدائها الحقيقيين أنصار الاستعباد . وابطال الاستغلال.

فى السياسة المصرية

الاستعمار والرجعية : نظراً لارتباط الرجعية المصرية بالاستعمار وقيام هذا الاخير بدور الحضن والتفريخ لها نرى من واجب البحث ان نتكلم عن الاستعمار وتاريخ ظهوره فى أوساطنا وما ترتب عليه .

لذلك سنرجع قليلا الى الوراء لنعيش بعض الوقت مع القرن السابع عشر والثامن عشر حيث نشاهد مرحل الثورة الصناعية فى اوروبا يكاد ينفجر من غليان الانتاج وتكدسه وكثره السلع فى اسواق اوروبا وما أعقب ذلك من فائض مال منساب فى جيوب الاغنياء أصحاب المصانع ورؤوس الأموال فعجزت الاسواق المحلية عن استهلاك هذه السلع والمنتجات . الأمر الذى جعل أصحاب الأعمال يستغنون عن كثير من عمالهم فتفشت البطالة وكثرت المجاعات وصار شعار العمال فى كل مكان الخبز . الخبز . نريد الخبز . وأصبحت اوروبا على كان يوشك ان ينفجر فيذهب بالأبيض والأحمر من جراء هذه الحالة الملعونة .

فقام الرأسماليون بحملات واسعة لتصريف انتاجهم وبالتالى لمنع الثورة التى تهددهم فى بلادهم ، ثورة الجوع والبطون والحرمان . فتطلعت عيونهم الى الشرق وبلدانه يصرفون فيه سلعهم ويبيعون أهله منتجاتهم واستطاعت كل دولة فى اروبا أن توجد لها علاقات تجارية مع بلدان الشرق وأقطاره . وظهرت المنافسة للتسابق على استغلال الشرق وكسب أسواقه التجارية بين انجلترا وفرنسا وهولانده ربات التجارة فى تلك الايام وكانت مصر من أكبر ميادين هذا التنافس وخاصة بين انجلترا وفرنسا . فمصر فضلا عن أسواقها المحلية وخاماتها الأولية تعد الشريان الوريدى لقلب المستعمرات الانجليزية الواقعة فى الشرق فهى ضرورية لانجلترا التى تريدها ان تكون طريقا جديدا نحو الهند . وبمقدار هذه الضروره هى كذلك فى نظر فرنسا التى حاولت غزوها والاستيلاء عليها وضمها الى المستعمرات الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت . إلا ان هذه المحاولة باءت بالفشل ومنيت بالخزلان . الى ان جاء عهد محمد على باشا فقرب الفرنسيين الى ساحته وأمنهم على ملكه وجعل

منهم المعلمين والمنظمين والمرشـــدين .إلا أن هؤلاء الذين اصـــطفاهم محمـــد على باشا لم يتمكنوا من أى شيء باسم فرنسا أو غيرها من الدول الاجنبية . كما أنهم لم يسيطروا على مرافق البلاد ومصالحها بل كانوا كموظفين خاضعين لامر سيدهم محمد على باشا وبالجملة فقد انعدم التدخل الاجنبي فى أول عهده وذلك للهضة الوطنية التى ظهرت فى ذلك العهد ولتأييد الشعب له فى كل أعماله . وأخيرا بدأ محمد على باشا يخضع للنفوذ الرأسمالى الاجنبى .. ففرضت الدول عليه الغاء نظام الاحتـــكار بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ إلى أن جاء عهد عباس يحمل بين طياته علم الرجعية فقرب اليه الانجليز بمقدار إساءته إلى الفرنسيين واستطاع النفوذ الانجليزى أن يظهر إلى الوجود على يد مستر (مرى) قنصل بريطانيا الذى تمكن بحسن سياسته ونفوذه من أن ينال موافقة الخديوى عباس بانشاء خط حديدى يصل القاهرة بالاسكندرية تقصر الطريق بين إنجلترا ومستعمراتها فى الشرق . وكان هذا الحادث علامة الدمار لاقتصاد المصرى . ومظهرا للغزو المالى الاجنبى فلم يبزغ عهد سعيد إلا والمال الاجنبي متدفق فى الاراضى المصرية . فى سنة ١٨٥٤ أنشئت شركة الملاحة النيلية وفى سنة ١٨٥٦ استطاع مسيو «ديلسبس» أن يحصل على امتياز بحفر قناة تصل البحر الاحمر بالبحر الابيض وكون لمشروعه شركة باسم «الشركة الدولية لقناة السويس» وفى سنة ١٨٥٧ تألفت شركة ملاحة اخرى باسم «الشركة المجيدية» . ويا ليت الأمر وقف عند هذا بل ان سعيد باشا بدأ يستدين من الأجانب حتى بلغت ديونه عند وفاته ١١٫١٦٠٫٠٠٠ من الجنيهات .

وكانت هذه الديون أمراً لا بد منه يرثه خلف عن ســـلف فقد تولى اسماعيل العرش مقترنا عهده بالاسراف والتبذير وبناء القصور الشاهقة التى بلغت العشرين عداً ، وشراء الأطيان التى جاوزت المليون فدانا .

وقد اضطر اسماعيل الى الاستدانة من البيوت المالية الأجنبية آنا باسمه وطوراً باسم الحكومة حتى اســـتهلك بعضها فى شراء تلك الأطيـان والانفاق على ملذاته والبعض الآخر استهلك فى الوســـاطة والأعمال الانشائية كتعبيد الطرق وانشاء

السكك الحديدية وشراء الآلات التى مصيرها التعطل بعد الشراء أى فى فتح السوق المصرى للاستغلال الأجنبى والبضائع الخارجية .

وقد بلغت قيمة الديون ١٢٦٫٣٥٤٫٣٦٠ جنيه .

على أن هـذه الأموال ليست وحدها التى تقدم بها الاجانب للاستغلال بل ان الأموال الأجنبية أخذت تتكاثر لتستغل الأمكانيات المصرية بشتى الطرق ومختلف الاساليب ، ففى (١) سنة ١٨٩٧ تأسست شركة الدلتا المصرية للخطوط الحديدية الضيقة ، وفى سـنة ١٩٠٤ تأسست الشركة المصرية لأراضى الدلتا ولاستغلال الأراضى التى تمر بها خطوط الشركة الاولى وفى سـنة ١٨٩٨ تأسست شركة الاسواق المصرية واحتكرت لنفسها بناء وادارة ١٢٠ سوقا ثم تلى ذلك تأسيس البنك الاهلى المصرى الذى كان من لجنة ادارته ه. بارنج ابن عم اللورد كرومر ، ثم تلاحقت الشركات حتى أصبحت الجرائد المصرية تشكو من كثرتها وتضخمها فبلغت ما يقرب من ٢٥٠ شركة فى الوقت الحالى وهكذا أصبحت رؤوس الأموال الاجنبية المستغلة الآن فى مصر ما يقرب من ٤٠٠ مليون جنيه .

لم يقف الامر عند هـذا الحد بل ان الاستعمار الانجليزى ابتكر خططا نارية لربط الاقتصاد المصرى بالاقتصـاد الانجليزى حتى أمكنه أن يحول مصر الى قوة إنتاجية للمستعل الانجليزى وأصبحنا نرى مصر حقلا من الحقول الانجليزية يخفيه عن بصر الاريب ساسة الانجليز ومندوبو الاستعمار الذين يمثل لنا اتجاههم لورد كرومر فى كتابه مصر الحديثة إذ يقول « ان مهمة الانجليزى المتمدين ان يقدم يد الصداقة والتشجيع المصرى المتأخر ، وأن يدفعه ماديا ومعنويا من الهوة التى انزلق فيها . سينال المصريون ماء لزروعهم وعدلا فى محاكمهم ... »

ونحن لا يهمنا من ذلك الكلام المعسول إلا ان نكشف لسادتنا الانجليز ما وضعوا من ستر محاولين بها تعمية المصريين عن الحقائق الناصعة التى يريدها

---

(١) كرومر فى مصر للاستاذ احمد رشدى صالح بتصرف

وما الى ذلك من الهذيان الكرومرى.

فقد شـــادت السياسة الكرومرية أن تقيم بعض الخزانات وتحفر بعض الترع لتزيد من انتاج القطن المصرى فزادت المساحة المزروعة قطنا زيادة ملحوظة قلت بنسبتها المساحة التى تزرع حبوبا للتغذية ، ففى الفترة (١) من سنة ١٨٨٤ — ١٩٠٨ زادت المساحة القطنية من ٨٠٠ ألف فدان الى ١٫٦٤٥٫٠٠٠ اضطرد معزيادتها زيادة فى استيراد المواد الغذائية من الماشية واللحوم والسمك ففى ســـنة ١٨٨٤ استوردت مصر ما قيمته ٣١٧٠٠٠ جنيها قفز الى ١٫١٦٥٫٠٠٠ جنيها فى عام ١٩٠٨ ما الحبـوب فقد بلغ قيمة الوارد منها عام ١٨٨٤ ما قيمته ٥١٠٫٠٠٠ جنيها قفز الى ٣٫٧٨٥٫٠٠٠ جنيها عام ١٩٠٨ .

لم تكن إنالة المصريين ماء لزروعهم حبا فى الاصلاح ولا نفعا للفلاح . كما يزعم اللورد كرومر ولكن للأسباب الآتية (١) حصول أصحاب مصانع ولانكشايره على مواد خام من القطن المصرى (٢) قدرة دفع الخزينة المصرية ما يطلب منها وفاء للديون وفوائدها فيرضى الدائنون عن كرومر الذى اتخذوه ممثلا لهم ومرافعا عنهم (٣) زيادة قدرة الشعب المصرى على الشراء بواســـطة الانتعاش الزراعى فيمكن لانجلترا أن تجد من مصر سوقا رائجا لمصنوعاتها (٤) ربط الاقتصـــاد المصرى بالاقتصاد الاجنبى فى أهم شىء لدى المصريين وهو القطن الذى أصبح تحكمه — فى أوضاعنا الاقتصـــادية وحياتنا الريفية — أمراً ظاهراً . فالقطن هو الذى يحدد الايجار كل عام وهو الذى يقرر أجرة الفلاحين والعمال فتضطرب حياتنا الاقتصادية لاضطراب سعره عنـد الانجليز وتتذبذب لتذبذبه وهكـذا بدخول فائض مال الاجانب الى مصر ليمتص الامكانيات المصرية على يد الديون الخديوية والشركات الاجنبية ، ويتفنن الاستعمار فى ربط الاقتصاد المصرى بالاقتصاد الاجنبى فى التصدير والتوريد أمكن للاستعمار أن يثبت أقدامه ويحكم أغلاله ويثبت أظفاره فى عنق المصريين ويجعل الشعب المصرى عبداً للمستغل الاجنبى والمستعمر الممقوت .

---

(١) نفس المرجع ص ٥٤

كان لقيام الشركات السالفة وانتشارها فى مصر أثر ملموس فى نشوء الطبقة البرجوازية المحلية فقد قامت طائفة من المصريين لتوريد ما تحتاجه الشركات من قوى مادية وجسمية وللتجارة مع هذه الشركات بشراء المستهلكات وغيرها من الآلات التى يحتاجها المصريون . كذلك ساعدت سياسة التوسع الزراعى فى انتاج مقادير عظيمة من القطن ـ تحتاج إلى التصدير واستيراد مقابلها من مواد غذائية ضرورية ـ على نمو فئة من التجار أصحاب السفن والمغازل الصغيرة أخذت تتعامل مع الاستعمار فى التصدير والتوريد فكان ذلك إيذانا بظهور احدى طوائف البرجوازية . برجوازية العواصم والمدن الكبيرة كالقاهرة والاسكندرية وأسيوط.

أما فى المدن الصغيرة والقرى فقد استطاع الاستعمار أن يخلق برجوازية عقارية من أصحاب الاملاك وأمراء الاقطاع وكبار الزراع وقد أفلح إلى حد كبير فى ربط هذه الطائفة ـ التى خلقها بسياسة التوسع الزراعى ـ بالاقتصاد والاستعمار وتربيتها بالتربية الاستعمارية وهى الطائفة التى تعرف فى نظامنا الحالى بالعمد والاعيان

وإذن فالاستعمار هو السبب فى نشأة البورجوازية المصرية التى حضنها حتى فقست رباها الى أن كبرت وترعرعت ونبت ريشها واشتد ساعدها وقوى ظهرها. والاستعمار هو الذى دفع بالمجتمع المصرى ـ وهو غير واع بالنقيض الذى أوجده ـ الى الامام بايجاد النظام البرجوازى وهذا هو احد الاسباب التى ربطت البرجوازية المصرية بالاستعمار الاوربى .

وبذلك شطر المجتمع المصرى الى طبقتين جديدتين برجوازية وبروليتيارية ملاك وكادحين وأصبحنا نرى المجتمع المصرى وقد استأثرت احدى طبقاته بالمتع والثروات بينما الاغلبية الساحقة من الفلاحين لا يملكون الا الفذر القليل من الارض واذا اشتغلوا كاجراء زراعيين لا يملكون سوى دريهمات معدودات فى اليوم فى حين أن الملاك الذين يملكون ٥٠ فدانا فأكثر وعددهم ١ إلى ٣٠٠ من عدد الزراعيين يمتلكون مايقرب من نصف الاراضى الزراعية والنصف الاخر يوزع على بقية الملاك وعددهم ٦٦ ر٩٩ ٪ من مجموع الملاك فليس بمستغرب من شعب هذه حاله وبلد تلك عاقبته ان يسوده ثالوث الاستعمار واقانيم الاستعباد ، الفقر ، الجهل ، المرض

العناصر المهادنة للاستعمار

يقول ماركس، إن العوامل الاقتصادية كامنة وراء كل حادثة من حوادث التاريخ العظيمة، فالثورات التاريخية والتغييرات الاجتماعية لم تحدث الا أثرا لعوامل اقتصادية فمثلا ثورة فرنسا لم تحدث فقط لأن اسرة البوربون قد فسدت ولا لأن (فولتير) وأضرابه كتبوا وتهكموا فحسب بل لأنه في خلال ٣٠٠ سنة ظهرت طبقة جديدة من التجار وأصحاب الحرف والصناعات الصغيرة ورأت انها أجدر بالسلطة من كبار ملاك الارض وان وجود الطبقة الاقطاعية يعطل مصالحها ويشل استغلالها ولذلك دفعت بالشعب إلى الثورة ضد الاقطاع . وهذا ما حدث في اثناء الثورة وبعدها فقد جلس هؤلاء البروجوازيون للتشريع باسم الشعب ووضعوا من النظم السياجية ما يكفل لهم أملاكهم ويضمن لهم أرباحهم ومصانعهم وحاربوا كل تيار يرمي الى تحقيق مبادىء الثورة تحقيقا شعبيا - وقضوا على مارا وروبسبيير بدعوى انهما متطرفان - واخمدوا حركة بابف Babeuf الاشتراكية .

فاذا كانت العوامل الاقتصاديه هي أهم ما يكمن وراء الاحداث والتطورات. فما هي العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي أنشأت الرجعية السياسية في التاريخ المصري الحديث؟

فمن المسلم به أن اشتراك المصريين في الحكم اشتراكا فعليا لم يظهر قبل سنة ١٧٧٨ وذلك لوجود العهد الاقطاعي المظلم . وانعدام الطبقة البروجوازية التي من لوازمها أن تسعى للاعتراف بها وبحقوقها في ذلك التاريخ .ونظرا لدخول الرأسمالي الأجنبي في مصر وخلق الاستعمار ظروفا جديده وعناصر مصرية لها كيانها وآمالها ، أخذنا نرى الخديوي اسماعيل - يأمر نوبار باشا بتأليف مجلس للنظار بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١١٧٨ فكان ذلك إيذانا بظهور فئة كبار المصريين التي تشارك الخديوي أعباء الحكم وتقاسمه السلطه . ولا يهم كثيرا أن يكون الذين شاركوا الخديوي سلطته قد شاركوه عن وعي لمصالحهم الطبقية أو عن غير وعي - فالمهم أن هذه العناصر أوجدت بالفعل وانهم أخذوا يشاركونه السلطة بالفعل - على أن اختيار نوبار بالذات وإن كان أول حدث من نوعه إلا انه كان بناء على رغبة الانجليز كما أنه ضم الى وزارته

عضوين أجنبيين أحدهما فرنسي والثاني أجنبي بل أن الاعضاء جميعا كانوا بناء عن رغبة الانجليز مما يجعلنا نتساءل عن السر في اختيار هذه الوزارة على هذا الوضع ولكننا نستطيع أن نقول : إن سياسة الأجانب الاقتصادية وخوفهم على أموالهم وشركاتهم ، أوحت اليهم بأن يطلبوا من الخديوى ضمانا كافيا لاستثمارها وحفظها .

فعين الخديوى نوبار ورياض المعروفين بميلهما للأنجليز مع الوزيرين الاجنبيين وبذلك تفادى سخط المرابين ، وغضب الانجليز . واستمرت وزارة نوبار تمثل السلطة الاجنبية ومصلحة البيوت المالية أما فيما يختص بالفلاحين الذين كثيرا ما زرف أعضاء لجنة التحقيق من أجلهم دموع التماسيح فلم نسمع كلمة عطف واحدة عليهم .

بذلك تأسست أول وزارة فى مصر تدافع من الاستعمار وتزود عن المستغلين وكما ينبئنا المنهج الدياليكتيكى أن وجود الشيء يتضمن وجود نقيضة فى الوقت الذى وجدت فيه مدرسة نوبار الرجعية ولدت مدرسة وطنية على نقيضها تعمل لمصر وتدافع عن حق الوطن المسلوب ولا شك ان التنافس بين الاستعمار والخديوى قد أظهر الفرق بين هاتين المدرستين - فالاستعمار يؤيد وزارة نوبار كما قلنا والخديوى يرمى بثقله فى الكفة الاخرى فنستفيد الحركة الوطنية .

عوامل ظهور المدرسة الوطنية :

سالت الارباح المتدفقة من الأمكانيات المصرية الى جيوب الاجانب ، وأصحاب القروض الخديوية ، والبنوك المالية ، والشركات الاستغلالية . وظهر نقيض هذه الحالة واضحا جليا عند المصريين ، فرهن الملاك أرضهم للبنوك العقارية وهجر الزراع املاكهم بعد أن باعوها مع ماشيتهم ودورهم . وأخذت الحالة تسير من سيء الى أسوأ . فبلغت الديون الخصوصية المسجلة فى المحاكم سنة ١٨٧٦ - ١٢ مليونا من الجنيهات زادت فى سنوات قلائل ٢٠ مليونا من الجنيهات . أما الأطيان المرهونة فبلغت ١٫٣٣ مليون فدان أما الضرائب فقد تعددت ، اعباؤها وتنوعت أصنافها فبلغت ٣٣ صنفا (كرومر فى مصر للاستاذ احمد رشدى صالح) والفلاحون الذين جرفهم السيل من منازلهم كما جرف منازلهم ودوابهم وآلاتهم أخذوا يساقون إلى المحكمة لدفع المتأخر من الضرائب حتى اضطر العمد والاعيان إلى ولوج القاهرة وبث آلامهم وموصائبهم . وقد صورهم لنا مراسل التيمس القاهرى فى رسالة له يقول « يوجد

فى القاهرة مئات من العمد والاعيان كل يمثل قرية من القرى جاؤا لتقديم العرائض بطلب تخفيف الضرائب ولقد حاصروا ابواب الوزارات حتى انك تراهم متربصين حولها ينتظرون دخول الوزراء وخروجهم بينما عرائضهم قد غطت بلاط الحجر، كذلك نقصت مرتبات الموظفين حتى كادت تتلاشى فى الوقت الذى ارتفع فيه راتب الاجنبى اضعافا مضاعفة .وقد ازداد عدد الموظفين الاجانب زيادة كبيرة وهم الذين أغاروا على الادارة المصرية منذ أواخر سنة ١٨٧٦ وكان لهم الغنم وعلى البلاد الغرم فعين من الأجانب فى الوظائف الحكومية فيما بين عام ١٨٦٤ - ١٨٧٠ عدد ١٦٠ شخصا وفى ١٨٧١ ، ١٨٧٥ عين ١٠٢ موظفا وفى سنة ١٨٧٦ وحدها ما يقل عن ١١٩ اجنبيا حشروا فى سلك الخدمة الملكية حشرا وفى سنة ١٨٧٧ عين ٧٦ موظفا وفى سنة ١٨٧٨ عين ١٣١ ثم سارت الامور فيما بعد من سيء الى أسوأ حتى أن توريد الموظفين الاجانب فى هذه الفترة بلغ حد الفضيحة كما يشهد بذلك مكاتب التيمس القاهرى فى رسالة له يقول « إن معظم كبار الموظفين هم من الأجانب الذين تصرف لهم المرتبات الضخمة لتهدئة حنينهم الى الوطن ، ولتعويضهم عن آلام الغربة . وقد حشرت المنافسات الدولية هنا ثلاثة أو أربعة من الموظفين فى عمل لا يحتاج تأديته إلا الى شخص واحد ولقد كان نتيجة هذه التجارب فى طرق الحكم أن ثقل كاهل مصر بعدد من الموظفين ذوى مرتبات ضخمة لا عمل لهم إلا قبض المرتبات » وشهد زميله الاسكندرى فى رسالة من الاسكندرية إذ قال « إن كثيرا من محبى اللهو من السائحين يجدون تسلية كبرى فى عد المستخدمين الاجانب الذين تبلغ مرتباتهم آلاف الجنيهات فى مقابل أعمال زهيدة يؤدونها فى حين أن المستخدمين الوطنيين لا يستطيعون أن يحصلوا على مرتباتهم الزهيدة التى لم تدفع لهم منذ عام أو أكثر مع أنهم قاموا بخدمات جليلة نافعة » وفى رسالة له أخرى يقول « إن التذمر من جيش الموظفين الأجانب الذين جيء بهم لأصلاح مصر أصبح عاما الآن فهم يتقاضون مرتبات ضخمة يبلغ مجموعها ٦٠٠٫٠٠٠ جنيه سنويا مقابل الاعمال التى يقومون بها .لعمرى أننا ننحدر إلى الهاوية بسرعة بالرغم من السائقين الانجليز والفرنسيين والطليان » مع اقتران ذلك كله بالاستغناء عن كثير من ضباط الجيش

وموظفيه فقد استقر رأى الوزراء والأجانب ذات يوم جمعة للقيام باصلاح جديد للحصول على مايكفى لاداء كوبون ابريل فاصدروا أمرهم باقالة ٢٥٠٠ ضابط من ضباط الجيش لم يستلم أحد منهم مرتبه عن الثمانية عشر شهرا السالفة كما أن الكثيرين منهم كانت متأخرة عن ضعف هذه المدة.

فكانت هذه العوامل متحدة باعثة الملاك والشعب المرهقين بالضرائب على التخلص من نير الاستعمار الانجليزى والاستبداد الحكومى الذى أوقع مصر فى هذه النكبات دون أن يسأل عما يفعل أو يناقش فيما يعمل . لذلك حزم اولئك المرهقون أمرهم وضموا صفوفهم الى التجار والبرجوازيين الذين اضربهم الاستعمار كما أضر بسائر طبقات الأمة .

فقد انفرد باستغلال الشعب واحتكار السوق فلم يستطيعوا الانتفاع بالحركة التجارية التى ولدها الاستعمار وتسلط عليها ، فوضعوا أيديهم مع الشعب متخاصرين متآذرين موطدين عزمهم على مواصلة الكفاح والنضال ضد الاستبداد وحليفه الاستعمار . فاجتمعوا فى دار السيد على البكرى نقيب الاشراف أولا ثم بمنزل اسماعيل راغب ثانيا وعقدوا جمعية وطنية استقر رأيها على المطالبة بتأليف وزارة وطنية وتقرير نظام دستورى للبلاد يجعل الوزارة مسئولة أمامه عن اعمالها امام مجلس النواب وبفضل تآزرهم وتمسكهم بمطالبهم استقالت وزاره نوبار باشا وتألفت أول وزارة وطنية خالية من العنصر الأجنبي ، هى وزاره شريف التى أخذت على عاتقها وضع دستور مصرى لصالح مصر والمصريين ومن ثم ابتدأ النزاع والصراع بين هاتين القوتين قوة الرجعيين الممثلة فى الانجليز وأنصار الاستعمار كرياض ونوبار وقوه الوطنيين ممثلين فى الجمعية الوطنية والشعب المضطهد .

وقد كان لهذا الصراح أثر بارز بين القوتين انتهى بتخلى الخديوى اسماعيل عن عرشه وبتطور المدرسة الوطنية الى ثوره جباره على يد عرابى والزعماء الوطنيين

الثورة العرابية

ان قانون التحول الفجائى الناتج عن تطور الاشياء والذى يدفع بها الى كيفيات مختلفة وهو قانون يصدق على الكائنات وتخضع له سائر الحركات . هذا القانون يمكن تطبيقه على الحركة الوطنية فى سيرها الى الامام أى فى تحولها الى حركة ملتهبة وثورة مضطربة تقضم جذوة الاستبداد وتلتهم حطب الاستعباد . . . ولقد اشتعلت نيران الثورة العرابية فى مصر ضد الانجليز والحكم الاستبدادى . وكانت حركة وطنية مصرية ضد الاستبداد العثمانى أيضا (راجع كتاب كرومر فى مصر) .

ففى يوم ١٥ صفر سنة ١٨٩٨ تقدم زعماء الشعب المصرى بمطالب جزئية عسكرية قابلها الخديوى من جانبه باصدار أمر لنظارة الجهادية يقول فيه : « بنا على الأفكار الفاسدة والحركات المضرة المتوقعة من كل احمد بك عرابى ميرآلاى ٤ بياده وعبد العال بك حشيش ميرآلاى ٦ بياده وعلى بك فهمى ميرآلاى آجى بياده خلافا للقانون والنظام العسكرى قد تقرر بمجلس النظار المنعقد بتاريخه بسراى عابدين تحت رئاستنا بتوقيف الثلاثة ضباط المذكورين وإحالة محاكمتهم الى مجلس عسكرى رئاسة الجنرال استون . . . الخ » فأخذت منهم سيوفهم ووضعوا السجن ووقف الناس بالطبنجات وآخرون بالسيوف الى أن جاء زملاؤهم من الضباط والجنود فأنقذوهم من السجن .

وفى يوم ٤ فبراير سنة ١٨٨١ توجه العسكريون الى الخديوى توفيق طالبين عزل ناظر الجهادية ولم يبرحوا أمكنتهم حتى أجيب لهم ذلك وتعين محمود سامى البارودى ناظر للجهادية إلا أن هذه المطالب الجزئية لم تكن كل شىء فالبلاد لم يكن بها قوانين تمنع الأقوياء عن الضعفاء وترد الظلم عن المظلومين وتسوى بين الناس . لذلك اعتمد أعيان البلاد وعمدها ورجال الشعب وطوائف القطر على أبنائهم — من العساكر والضباط الذين يمثلون مختلف طبقات الشعب — فاتحدت كلمة الامة بزعامة العرابيين على تحقيق مطالب الشعب التى يمثلها لنا عرابى باشا فى وثيقته التى بعث بها الى اللورد « دوفرين » بتاريخ ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢ حينما

طلب منه بيانات بالأصلاحات العرابية لانتظام الحكومة المصرية وهاهى :

(١) يجب على الحاكم فى مصر أن يكون محدود السلطة مقيدا بقوانين شورية وعليه مراعاة تنفيذها والمحافظة عليها وتلك قاعدة أساسية تكون مرعية الاجراء على الدوام

(٢) يجب انتخاب مجلس النواب من نبهاء الأمة المصرية ويكون إنتخابهم حرا كما فى الممالك المتمدينة وتعرض عليه جميع اللوائح والقوانين الأدارية والقضائية وتعطى لأعضائه الحرية التامة فى المداولة وإبداء آرائهم الصريحة

(٣) يجب أن توضع قاعدة المساواة بين سكان القطر عموما لا يمتاز فيها الأجنبى عن الوطنى فى جميع المعاملات وضرب الضرائب والرسوم وغير ذلك

(٤) تجب وضع حد للمرابين لمنعهم من سلب أموال الأهالى كما يجب إيقاف المزارعين عند حدهم فى الأخذ بالربا

(٥) يجب تسوية دين المزارعين وتسديده بواسطة الحكومة إلى الدائنين على أقساط متناسبة تسدد إلى الحكومة مع الانساط الأميرية

(٦) يجب إبطال ضرائب الوركو والفردة والدخوليه وجميع المكوس التى أضرت بالفقراء والمساكين

(٧) يجب إبطال السخرة التى هى السبب الوحيد فى عدم العمران وتشتيب شمل الذين لا قوت لهم الا كد أيديهم وعرق جبينهم

(٨) يجب توحيد القوانين القضائية فى جميع محاكم القطر المصرى وتنفيذها بالدقة بدون تدخل من ذوى السلطة فى تأويلها واستعمال الطرق القديمة فى مراعاتها ظاهرا وعدم مراعاتها فى الحقيقة

(٩) يجب إبطال المحاكم المختلطة التى أضرت بالوطنيين وكانت الوسيله الوحيدة لأعانة المرابين على تجريد كثير من الوطنيين من أطيانهم وأملاكهم

(١٠) يكتفى من الاجانب الموظفين بقدر الضرورة مع مراعاة حالة مالية البلاد فى رواتبهم والمناسبة بينها وبين رواتب الموظفين الوطنيين

(١١) يجب أن يكون قنال السويس حرا بكفالة الدول الموقعة على معاهدة برلين وفى مقابل تنازل مصر عن حقوقها الصريحة فى ذلك تعوض بمبلغ كاف يعادل هذا التنازل ليسدد به جانب من الدين ومع ذلك يبقى لمصر حق فيه كباقى الدول

المذكورة وعلى الدول أيضا دفع مبلغ سنويا يكون كافيا للمحافظة على القنال

(١٢) لاجل تأمين الدائنين على أموالهم يجب تنزيل الدين الى ٥٠٪ وجعل الفائدة ١٪ مع الاستهلاك سنويا

(١٣) يجب أن تكون ضرائب الارض العشورية مساوية لضرائب الاراضى الخراجية لأن الخراجية صارت ملكا حرا لما لكيها بمقتضى قانون المقابلة

(١٤) يجب إعتبار الاموال التى دفعت من طرف المزراعين فى المقابلة دينا على الحكومة وقدرها ١٧٠ مليون جنيه، سبعة عشر مليون من الجنيهات وذلك أسوه بالاجانب

(١٥) يجب تعميم التعليم وتوسيع دائرته فى انحاء القطر بحيث يكون إجباريا إلى غاية سن ١٥ سنة خمسة عشر سنة

١٦، يجب أن يكون لمصر وكلاء فى جميع الممالك الموقعة على معاهـــدة برلين لافهامها حقيقة مصر وتسهيل المعاملات التجارية وغيرها

هذه هى المطالب الرئيســـية التى أن دلت على شىء فعلى أنها صادرة عن حركة وطنية بقيادة طبقة معينة تريد أن تكشف الاستغلال عن الارض، وأن تشترك فى الحكم وأن يسوى بين أفرادها وبين الاجانب المقيمين ومعظمهم تجار — أى أنها مطالب وطنية عامة وليست مطالب عسكرية كما يرجف المغرضون بل تقدم بها العسكريون نيابة عن الامة

وقد كان مقدرا لهذه الثورة أن تنجح لولا انحياز الكثيرين إلى جانب الانجليز ولولا عدم تنظيم العناصر الوطنية، وطفولة الطبقة الوليدة التى أرادت أن تشارك فى السلطة فأخذ الصراع يشتد ويتزايد بين القوتين، قوة الوطنيين الثوريين وقوة الانجليز والرجعيين

وأخيرا سقط الاشراف الوطنيون وإنفرد الانجليز بحكم مصر واحتلال وادى النيل من سنة ١٨٨٢ — إلى قيام ثورة عام ١٩١٩ ويجدر بنا أن لاننسى الحركة الوطنية بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد فهى وإن كانت لم تنته إلى نتائج حاسمة فى حينها إلا أنها كانت الدفعة القوية الاولى فى تطور نهضتنا الوطنية

ثورة ١٩١٩

تعتبر الفترة التى احتكر الانجليز فيها وادى النيل من أسود الصفحات التاريخية فى جبين الاستعمار البريطانى فقد ضيقوا الحريات وقتلوا الروح الديموقراطية فى نفوس المصريين . وقاوموا الحركات الدستورية وذلك ليتمكنوا من استغلال الشعب واستنزاف ثروتنا القومية ، وامتصاص أمكانياتنا من أجل مصلحة الرأسماليين الاجانب الذين أفسحت لهم الطريق لاستغلالنا ، وقتل الرأسمال الوطنى حتى لاتتمكن صناعتنا من النهوض ومسايرة التطورات الزمنية وقد عمد الاستعمار إلى محاربة الديموقراطية حتى يضمن عدم ارتفاع صوت الشعب منادياً بحقه فى الحرية والاستقلال كما نراه يحارب المطالب التى تتضمن تعليم الشعب ورفع مستوى المعيشة ومكافحة الامراض المنتشرة وغيرها .

وقد ترتب على ذلك قيام وكفاح شديد بينه وبين الشعب المصرى بقيادة الزعيمين العظيمين مصطفى كامل ومحمد بك فريد . إستطاع الشعب بواسطته أن يكف يد التدخل الاجنبى إلى حد ما فى حياتنا القوميه كما إستطاع أن يرد لمصر بعض الحقوق التى أهدرها الاستعمار واستطاعا أن يبعثا الحركة التعاونية فى الزراعة والتعليم الوطنى وحرية الصحافة.

ثم أعقب ذلك قيام الحرب العظمى ونمو الطبقة البورجوازيه وإتساعها وإمعان الانجليز فى البطش بالمصريين وقتل الحركات الشعبية لذلك ما كادت الحرب تضع أوزارها وترتفع مبادىء «ولسن» بحق تقرير المصير . حتى هب أولئك المكافحون منادين بالحرية والاستقلال وابتدأت الحركة المصرية تأخذ شكلا ثوريا بقيادة الوفد المصرى وزعامة سعد زغلول باشا .

وهنا ظهر النضال حادا عنيفا بين الانجليز وأذنابهم من الرجعين المصرين كثروت المنشقين وبين الوفد المصرى والوطنيين وقد كان الوفد منذ نشأته القائد للكفاح الوطنى الديموقراطى وهو الذى انطلق بعد ذلك يؤيد الديموقراطية الشعبية وقد استهدف الوفد فى كل هذه المصارعات إلى حملات الاستعمار والرجعين حلفاء الاستعمار من الاجانب المتمصرين والمصريين المعادين له

وهنا تظهر طائفتان خطرتان للديموقراطية فى مصر وتشتركان مع الاستعمار فى إقامة العراقيل فى سبيل كفاحه الوطنى ، الأولى طائفة الأجانب المقيمين فى مصر من أرباب المال والأعمال .

أما الثانية فهى طائفة الرجعيين المصريين الذين بقوا معاندين للوفد وللحركات التقدمية الى اليوم . والسبب فى ذلك واضح وجلى فارتباط مصالحهم بمصالح الاستعمار أمر لا شك فيه . فهم يمثلون الاستعمار فى عضويتهم لشركاته وإدارتهم لمصالحه لقاء حفنة من المال أن منصب مختال . كما أن البعض الآخر من هؤلاء ترجع عداوته للديموقراطية الى مصالحه الطبقية التى بدأت تتأثر بنمو الديموقراطية ومن ثم آثر تضحية جميع مصالح الشعب على مصلحته الخاصة .

وقد ظهرت فى مصر طوائف رجعية أخرى تعتمد على شباب غرير لا يدرك من الحياة إلا اسمها ، ولا يعرف عن السياسة غير لفظها وهم وإن اختلف أسماؤهم وتباينت مظاهرهم ، إلا أنهم يتسمون بالفاشية المضللة وذلك كجماعة مصر الفتاة وهيئة الاخوان المسلمين وحزب الميليشيا عباس حليم وجماعة على ماهر باشا . وإن كان الفشل قد أصاب هذه الجماعات فى مراحل تكوينها فان خطرها ما زال جاثما على صدور الحركات الديموقراطية . لا بل ان خيبة الفاشية العالمية بدلا من ان تجعل الحكومة تقضى على هذه الجماعات راحت تؤيدها . فى الوقت الذى تخنق فيه الحركات الديموقراطية ، وتزج بالأحرار الشعبيين فى أعماق السجون . وأخيراً ينضوى تحت لواء الرجعيين كثيراً من الكتاب والمتفلسفين كالعقاد وغيره من أصحاب البروج العاجيه والصحفيين المأجورين للانجليز وأرباب الأعمال والذين لا عمل لهم إلا مناهضة الحركات الديموقراطية ومحاربتها والنظريات المعادية للديموقراطية والتهجم على النظام البرلمانى والدستور ووصفها بأقبح الصفات رغبة نسفهما ، والذين يقومون اليوم بمحاربة مقتضيات الديموقراطية ومعارضة التعليم الاجبارى المجانى ، وحق المرأة فى نيل حقوقها المغتصبة ورفع مستوى معيشة الفلاحين والعمال ومعاداة الحركات التحريرية والنهضات الشعبية ومحاربة الحركة العمالية وطليعة (١) الديموقراطيين المثقفين .

---

(١) راجع مقال الديموقراطية المصرية بين أنصارها وأعدائها (العدد ١٥ من الفجر الجديد)

على أننا لا نغفل ما حدث فى الوفد المصرى فى ايامنا الاخيرة من انقسام قيادته الى ناحيتين تقدمية ورجعية وسيطرة العناصر القوية من كبار الملاك والمزارعين على الوفد فى اتجاهه الرجعى وركونه كغيره من الاحزاب يميل الى الاستعمار ومهادنته للانجليز واتخاذه طرق الرجعية فى سياسته الخارجية .

رجال الدين بين انصار الشعب واعدائه

لمحة تاريخية : يرجع تاريخ ظهور رجال الدين كقوة رجعية هدامة الى المجتمع الاقطاعى حيث اضطر الامراء والنبلاء الى اخضاع العبيد بشتى الطرق ومختلف الاساليب . وقد وجدوا سلاحهم البدنى فى رجال البوليس والجيش الذين تعتبر مهمتهم الاولى منع العبيد من الفرار ، وارجاعهم الى حظيرة النبلاء والاشراف بقوة الحديد والنار . أما سلاحهم الروحى فقد تكفلت به جماعة كنسى كانت تعيش على حساب العبيد الكادحين . وهى الطائفة التى سميت فيما بعد باسم « رجال الدين »

فكانت مهمتهم تخدير أعصاب العبيد وتخويفهم بالقوة الخفية التى تطلع على أعمالهم وتشهد على أفعالهم وسوف تحاسبهم على مخالفة أمر الاسياد التى هى أوامر الله على ألسنتهم إذ أنهم يستمدون سلطتهم من الله فمخالفتهم عصيان وتمرد على الله القوى الجبار . الى غير ذلك من التهديد والوعيد والتخويف والتحذير . وقد أمكن لهذه الطائفة أن تتضخم فى عصور التاريخ وتساير الزمن فى قوتها حتى أصبحت تملك ثلث مساحة اوروبا وعشر غله الباقى .

لذلك لا تعجب اذا رأينا هذه الطائفة تعمل عمل الرجعية خوفا على سلطانها وحفظا لكيانها كما حدث من كبار رجالها المترفين إزاء الحركات الشعبية فى الروسيا وعلى سبيل المثال نذكر هنا بعض ما عانته الحركة الشعبية الاشتراكية الديموقراطية على يد كبار رجال الدين الروسيين من عداوة لرجال الحركة وصفوف العمال .

فقد يكون فيه بعض المعرفة لمن يرمى الاشتراكية — خطأ وعن جهل — بعدائها للأديان وهى بريئة من هذا الادعاء، وإن حاربت بعض رجال الدين الرجعيين الذين أعاقوا الثورة ولعنوها وانضموا الى صفوف القياصرة فى محاربة الاشتراكيين، وذلك ما يحدث دائماً فى صفوف رجال الدين فان كبار الدين هم الذين ينضمون الى الرجعية دائماً لحفظ مراكزهم وأموالهم أما صغار رجال الدين فهم دائماً فى صف الشعب والجماهير إذ أنهم لم يتلوثوا بأدران المادة ولم تلهمهم تجارة أو بيع عن ذكر الله وحق الجماهير .

فى ١٦ يناير ١٩٠٥ ثار العمال بمدينة سانت بطرس بورج وأعمل فيهم الحرس القيصرى مدافعه وسيوفه حتى بلغ عدد القتلى عدة آلاف فأصدر « السينود » منشوراً جاء فيه « لقد وقف الشعب الروسى الارثوذكسى من أول تاريخ حياته من أجل الدين والقيصر ولكنه الآن تأثر ببعض رجال السوء للحصول على حقه ... »

ثم تلعنهم الكنيسة وليس لهم من وزر سوى أنهم ماتوا فى سبيل الحرية بل ماتوا فى سبيل المطالبة بالخبز . ثم يختم المنشور بالعبارة المعهودة « يريد أعداؤنا أن يزلزلوا دعائم ديننا المسيحى وسلطة القيصر ... امجدوا الله واحترموا القيصر . اخضعوا لكل سلطان مبعثه الرب »!!

أما فى ثورة اكتوبر الاشتراكية فقد حاربت الكنيسة الثورة والثوار ولعنتهم وأصدرت المنشورات ضدهم واليك ما جاء فى أحد المنشورات « بحكم السلطة التى وهبنا إياها من لدن الرب نمنعك دون الاقتراب من السر المقدس للمسيح . نحن نحرمك من رحمة الكنيسة لو كنت ما تزال تحمل اسما مسيحيا حتى ولو كنت بمولدك تمت الى الكنيسة الارثوذكسية . نحن ندعوكم يا أبناء الكنيسة المخلصين الى عدم الاشتراك بأى شكل من الاشكال مع هؤلاء المجرمين . أبعدوا أنفسكم عن هؤلاء الاشخاص الملاعين . »

ويمثل هذه المنشورات وغيرها من أساليب الحرب والدعاية يتضح موقف الرجعيين من رجال الدين من طلاب الحرية وعشاق المساواة .

فهل يحق لنا بعد ذلك أن نقول إن الاشتراكية عدوة للاديان ؟

أم الاجدر بنا أن نعرف أن كبار رجال الدين هم الذين كانوا يهاجمون جموع العمال والفلاحين وهم الذين كانوا يصبون اللعنات على كفاحهم من أجل خبزهم وحريتهم

ورجال الدين المصريون ....

يتجه رجال الدين المصريون إلى ناحيتين متناقضتين إحداهما تساير الزمن وتطورات الحياة وهى طائفة صغار رجال الدين والثانية جامدة جشعة تتمسك بالقديم لقدمه وتكره أن تنتقل إلى عالم الثورة والتقدم وهذه الفئة فى الغالب من كبار الدينيين وهذه الظاهرة لا تقتصر على طائفة فحسب ولكنها عند رجال الدين المسيحى واليهودى والاسلامى على السواء فى جميع حلقات التاريخ الحديثة كما أن الواقف على المصارعات الرجعية والتقدمية يرى أن صغار رجال الدين هم على الاغلب فى صفوف الشعب كما يظهر ذلك من تتبعنا لمواقف رجال الدين إزاء الحركات التحريرية المصرية

رجال الدين والحملة الفرنسية :

لقد كان لرجال الدين أثر بالغ فى نفوس المصريين خاصة والشرقيين عامة . ونحن لا نستطيع أن ننكر ما للدين من أثر فى نفوس الشرقيين مما جعلهم يقدسون رجال الدين ويحترمونهم أكبر ما يكون الاحترام

عرف هذه الحقيقة الغزاة والفاتحون واستطاع نابليون بونابرت أن يتقرب اليهم بالهديا الفاخرة والأمانى العذاب إلا أن العلماء قاوموا نابليـــون ووقفوا فى طريقة يحذرون الشـــعب منه ويؤلبون المصرين عليه وينظمون الثورات ضده

وهذه صفحات ناصعة فى تاريخ رجال الدين المصريين ! والسبب عندى أن مصالحهم كانت فى معظمها متفقة مع مصلحة الشعب ! أى أنه كان يهمهم أن لا يجردهم الغازى من سلطتهم كما كان يهم الشعب أن لا يبطش به المستعمر — غير أن فريقا خائنا قد وجد بين الصفوف - وعلى رأسه بعض العلماء والكبراء أولئك الذين أيدوا

نابليون وتسلطت عليهم عقيدة القدر وأساؤا فهم الحياة الدينية وقد أدرك نابليون سر هذه العقيدة لدى الشعب المصرى فاستغلها فى نشراته وخطبه فما جاء إلى مصر إلا بقضاء وقدر وما تحركوا من بلادهم إلا بقدرة الله فكل من يعارضه يعارض الله وهذا نص لمنشور يستغل فيه نابليون عقيده القدر فى نفوس العلماء والشعب المصرى «... فيا أيها العلماء والاشراف أعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذى يعادينى ويخاصمنى إنما خصامة من ضلال عقله وفساد فكره . فلا يجد مخلصا ولا ملجأ ينجيه من هذا العالم ولا ينجو من يد الله لمعارضته مقاديره سبحانه وتعالى والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وإرادته وقضائه ومن يشك فى ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة . وأعلموا أيضا أمتكم أن الله قدر فى الأزل هلاك أعداء الاسلام وتكسير الصلبان على يدى وقدر فى الأزل أن أجىء من أرض المغرب إلى أرض مصر لاهلاك الذين ظلموا فيها وإجراء الأمر الذى أمرت به ولا يشك العاقل أن هذا بتقدير الله وإرادته وقضائه . . . . . والذى يفعل ذلك « لعنة الله والغضب عليه» يكون معارضا لاحكام الله ومنافقا وعلية اللعنه والنقمة من الله علام الغيوب . . . . . ولكن يأتى يوم يظهر لكم عيانا ويتضح أن ما فعلته وحكمت به هو حكم إلهى لا يرد . . . »

فاستجاب له من استجاب من العلماء وضموا صفوفهم إليه مستغلين عقيدة القدر فى تخدير الشعب وتنويمه والتغرير بالأهالى وإصدار النشرات للمصرين بأمرونهم بالركون وعدم قتال الفرنسيين مهددين من يشهر السلاح فى وجه نابليون بالوعيد الشديد والخروج عن أوامر الله . فمن ذلك ما جاء فى أحد المنشورات باسم العلماء الذين انحازوا إلى نابليون

« . . . . فاشتغلوا فى أمر دينكم وأسباب دنياكم واتركوا الفتنة والشرور ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم وعليكم بالرضى بقضاء الله وحسن الاستقامة . . . رزقنا الله وإياكم التوفيق والتسليم »

وهكذا رأينا بعض رجال الدين يهادنون الاستعمار الفرنسى ضد إخوانهم الذين وقفوا حياتهم مع الشعب ضد المستعمرين

رجال الدين والثورة العرابية :

لم يعرف تاريخنا الحديث أن العلماء وضعوا جهودهم الروحية والمادية فى سبيل نصرة ثورة من الثورات كما عرف ذلك لرجال الدين فى الثورة العرابية .

فقد كان رجال الدين على اختلاف ديانتهم من يهود ومسلمين ومسيحيين — يحملون راية الجهاد مع الشعب المصرى وكبار الملاك والبورجوازيين وكانت الثورة العرابية قومة مصرية ضد التدخل الأجنبى وفورة شعبية فى سبيل تحقيق حياة نيابية — وعليه فكانت حركة عامة كنت ترى فيها الحاخام الأكبر مع البطريرق المسيحى وشيخ الجامع الازهر . يخطبون ويحرضون ويعلنون أنهم أعداء للانجليز والاستبداد .

وقد إنقسم رجال الدين فى هذه الثورة إلى ناحيتين، الاولى تسير فى أذناب الانجليز والخديوى توفيق وعلى رأسها الشيخ العباسى والشيخ أحمد كيوه شيخ رواق الصعايدة والشيخ فتح الله صاحب جريدة الاعتدال مع بعض كبار العلماء. أما الثانية فقد اتحدت مع الشعب من أول محنته إلى نهاية محاكمة الثوار ويتزعمها جلة من العلماء على رأسهم الشيخ الانبانى وكثير من فضلاء العلماء كالشيخ حسن العدوى والشيخ عليش المالكى والشيخ محمد عبده والشيخ أبو العلا الخلفاوى والشيخ الاشمونى أحمد المنصورى والشيخ محمد السملوطى والشيخ أحمد البصرى والشيخ عبدالله نديم والشيخ أحمد عبد الغنى وغيرهم من بقية رجال الدين الازهريين وقد تجلت أعمال الوطنيين الظاهرة فى خطبهم فى المساجد وعلى أعواد المنابر وحثهم على الجهاد فى سبيل الله ضد الانجليز (أعداء الدين والله)

وإلى جانب هذه الجهود كانت الفتاوى الدينية للحض على تحطيم الاستبداد والتخلص من نير الانجليز فقد كانت الحرب — التى أعلنها الخديوى قبل رحيله إلى الاسكندرية وبموافقة عمد البلاد وأعيانها والمجلس العرفى — مشروعة وواجبة لانها بامر الخديوى والوجهاء ورجال الدين ولان المقصود بها أن ترد الاعتداء الاجنبى وتصد أساطيل « أهل الكفر والفجور عن المياه الاسلامية » لذلك لا نعجب إذا أفتى العلماء بأنها حرب شرعية دينية واجبة على المسلمين ، كما جاء فى

خطاب للشيخ العدوى إلى عرابى باشا يقول فيه « بسم الله الرحمن الرحيم »

إن أبهى ما توشحت بموصوله نتائجة هم الاحوال، وتزركشت بمسلسل أخباره أعناق الرجال . سلام يفوق السماكين قدرا ، ويذرى بنشر بشر الطيب زخرا. حضره من ســـطع فى سماء الكمال قوره وتفتق فى رياضها زهر الفضل ونوره شمس المعارف وبدر اللطائف . إنسان عين أهل المجد والعرفان وحامل لواء العز لاهل هذا الزمان سعادة احمد الاسم والحصال بلغنا الله وإياه الآمال ، بجاه سيدنا محمد والصحب والآل

أما بعد . فقد حضر لدينا ولدنا أحمد أفندى صادق وبلغنا عن سعادتكم السلام فابتهلنا ورفعنا الاكف إلى ذى الجلال والاكرام أن يرشدنا وإياكم لطريق الاستقامة والكمال ويوفقنا واياكم لمرضاة ذى العزة والجلال أنه غير مسئول بجاة كل نبى ورسول وأرجو من الله بجاة حبيبه الاعظم أن يعز بكم الاسلام ويجعل كيد عدوكم فى نحره بجاة سيد الآنام عليه الصلاة والسلام . وواصل لديكم صحبة ولدنا محب الطرفين أحمد افندى . رافع بنوع المسرات، والنفحات الشاذلية شرحنا على البرود الا باصيرية النفحات النبوية فى الفضائل العاشورية ببركة ما فيها من الاحاديث النبويه أن يوفقكم لاظهار عز الملة الحنيفية وان شاء الله بفضل الله لا ننساكم مع الاخوان عقب درس البخارى وفى الاعتاب الحسينية . مع تبلغ سلامنا لحضرة ولدنا محمد افندى الزمر وباقى اخوانكم ودمتم

٢٧ الحجة ١٣٩٨ الفقير

حسن العدوى

خادم العلم بالازهر

عفى عنه

ولا يتوهم من ذلك ان العلماء لم يذهبوا الى مواطن القتال مع الثوار فالحقائق تشهد أن رجال الدين كانوا يتنقلون مع جيش الشعب من الاسكندرية الى كفر الدوار والتل الكبير . كما تظهر قوة العلماء فى الجمعية التى انعقدت بدار الداخلية وتليت عليها أوامر الخديوى بايقاف التجهيزات الحربية والعمليات العدائية وكيف اشار مقرا هذا القرار أعلى الشيخ الانبابى شيخ الاسلام والجامع الازهر وبقية

العلماء بان الحرب مستمرة وانها واجبه للدفاع عن الوطن ودفع العدو عنه وان الذى يرضى بأمر الخديوى ما رق عن الدين ...

بل أن العلماء أفتوا بعزل الخديوى توفيق عندما تقدم لهم استفتاء من عرابى ينص على السؤال عن حكم رجل استعمله خليفة المسلمين على قطر من الاقطار فانضم الى أعداء المسلمين واستبد برأيه فهل يجوز عزله ؟ وعلى ذلك ختم العلماء بالجواز وفى مقدمتهم الشيخ عليش والخلفاوى والعدوى والامبابى والاشمونى .

وهكذا فعل العلماء الوطنيون فى الثورة العرابية واسمعوا العالم صوت الحق بجانب الجماهير والشعب الثائر .

رجال الدين وثورة ١٩١٩

أيقظ الاحتلال البريطانى طبقات الشعب المختلفة وفى مقدمتهم كبار رجال الدين وصغارهم فمنهم من اتحدت مصالحه مع المصالح الوطنية فتقدموا الثورة دفاعا عن حقوقهم التى سلبها الاستعمار وكان لهؤلاء الفضل فى محاربة فكرة الطائفية فابتدأت الهتافات الشعبية تأخذ صبغة اتحادية بين الصليب والهلال . وتمكن رجال الدين من القضاء على دعاية الاستعمار وأعوانه بفضل جهود الشيخ الليان شيخ علماء الاسكندرية والقمص سرجيوس وغيرهما من رجال الدين وأصبحنا نلمح رجال الدين المسيحى يدخلون الازهر حاملين مشاعل الثورة مع اخوانهم المسلمين .

إلا أن الاستعمار لم يعدم أنصاره بين رجال الدين — حتى فى هذه الثورة الوطنية العامة فقد انضم البعض الى الانجليز وثروت والمنشقين .

وبعد الثورة المصرية الكبرى لم تر مواقف وطنية واضحة لرجال الدين ولسنا نظن أننا سنرى لهم موقفا خاصا بهم فهم لا يمثلون أنفسهم ولا يكونون جزءاً منفصلا عن جسم الامة — انهم أجزاء من طبقات فى المجتمع — فكبارهم من طبقة كبار الملاك وكبار الرأسماليين وصغارهم من طبقة العمال والفلاحين ! أى أن مواقفهم الوطنية لا يمكن تفسيرها بمعزل عن موقف بقية الطبقة التى ينتمون اليها ! ويمكننا أن نقول أن صغار رجال الدين قد أصبحوا اليوم — شأنهم شأن بقية

الطبقات الشعبية — لا يثقون بالقيادات الرأسمالية السياسية — لأنهم عرفوا بالتجربة انها ليست جادة فى مخاصمتها للاستعمار — ولانهم رأوا الدليل تلو الدليل على أن الاستعمار يراوغ ويراوغ فما ترده هذه القيادة . ولاتريد أن توجه الشعب الى حيث يستطيع أن يتحرر ويستقل — ويهمنا أن نعرض لبعض نواحى الحياة الدينية بيننا ولبعض النشاط الذى يقوم به رجال الدين

الأزهر والاصلاح

كانت الاسباب الدافعة للفاطميين على تأسيس الازهر أسبابا سياسية ترمى الى تلقين المذهب الشيعى للمصريين ومقاومة الدعوات الاخرى التى تتعارض معه . وقد إتسعت دائرة الازهر على مر القرون حتى أصبح العلماء المتخرجون منه يكونون احدى طوائف المجتمع المصرى .

فى العصر الاقطاعى كان كبار العلماء إحدى طبقات المجتمع الاقطاعى ، يعيشون كغيرهم من أمراء الاقطاع على مجهود العبيد الكادحين .

ولما انتقل المجتمع المصرى بسبب الاستعمار الى الطور الرأسمالى — أصبح من الهام الاستعمار أن يخلق طبقة عليا من العلماء .

وما زال يتحين الفرص لذلك حتى تمكن فى سنة ١٩١٥ من تأسيس «هيئة كبار العلماء» التى من لوازمها أن تقسم المرتبات الاضافية وتتولى المناصب الادارية ومشيخة الازهر وعمادة الكليات .

وبهذا الوضع أصبحنا نرى علماء الازهر طبقتين . الاولى لا تقل فى نعيمها وملذاتها عن أية هيئة مترفة ناعمة غنية . والثانية يجرى عليها ما يجرى على طبقات الشعب الفقيرة من بؤس وشقاء .

على أن التناقض ظاهر بين كبار رجال الدين وصغارهم فبينما نجد كبار رجال

الدين يرتمون فى أحضان الاستعمار والرجعيين من أذنابه كالاحزاب الرجعية والمنظمات الفاشية آذا بصغار رجال الدين يكافحون مع الشعب ويعادون الاستعمار والاستبداد ، وينضمون الى المنظمات الشعبية ، والحركات الديموقراطية ، ويبثون تعاليم دينهم بين الشعب وجماهير الفلاحين حاملين راية الاصلاح الى قومهم عملا بقوله تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » وبقوله جل ذكره « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

الأزهر فى أمسه : سنة الله فى خلقه ونظام الطبيعة فى سيرها الشيء يصح ويعل ويحيا ويموت . دورات مضطردة ، وناموس متعاقب والأزهر ككل شيء فى الحياة، خاضع للتقلبات المختلفة والظروف المتغيرة . فلم تكد الغفوة تلحق بالشرق الاسلامى حتى أصاب رشاشها الأزهر فاذا هو نائم ، واذا بالفساد يتطرق الى جميع مرافقه . فالادارة متهالكة . والعلوم غامضة مغلقة ، والتأليف صعب ومعقد . وكل ما فى الأزهر من علوم تكرير وترديد لما ألف فى عصور الاسلام الزاهرة . فالمتن كلمات مهوشه وشرحها أغمض منها ، والحاشية مبهمة والتعليقات أبهم منها . والعلم قاصرا على ترديد الألفاظ وتكرير الالغاز ، والعلماء عاكفون على كتب خالية من روح العلم وجوهر الاسلام . واقفون عند حد التقليد محرومون من الاجتهاد .

وذلك نتيجة للانحطاط العام الذى شمل الشرق فى جميع مرافقه .

وما زال الأمر كذلك حتى ابتدأ الشعب فى وعيه وتيقظ المصريون الى حالتهم وابتدأت الثقافات الأجنبية والاختلاط بالحضارة الأوروبية يمشى بين صفوف المصريين فتيقظ الغافل وانتبه النائم وعند ذلك بدأ الأزهر فى الحراك وها هى ذى طليعته الواعية تدرك مسئولياتها الوطنية والروحية وتعلم أن مصير الأزهر مرتبط بمصير الشعب .

الأزهر اليوم : جدت علوم ، وجدت أحداث واندفع العالم الى الأمام فخطت الانسانية قفزات سريعة إلى الحضارة والرقى .

وعلى ربوة عالية جلس الأزهريون يرقبون الأحداث فاختلف اتجاههم فى مايرون

من إصلاح تبعا لتكوينهم العلمى واتجاههم العقلى . وانقسم الأزهريون إلى أقسام .

(ا) محافظون : وهم يرون أن الأسلم للأزهر أن لا يخرج عن القديم واتباع السلف من هذه الأمة . وهم يحتفظون بعقلية العصور الماضية وينظرون إلى التطورات الحديثة بمنظار أسود قاتم .

(ب) حائرون : وهم العلماء الذين جمعوا بين الثقافة الأزهرية القديمة وأخذوا بعضاً من الثقافة الحديثة هؤلاء يمثلون العقلية المترددة الحائرة فلاهم تاركون القديم ولا مسايرون الزمن فى تطوره . بل فضلوا أن يأخذوا الثقافة القديمة مرتبطة مع بعض الثقافة الحديثة ومنهم من جمعوا بين الثقافتين الغربية والشرقية ، إلا أنهم لم يأخذوا من الثقافة الغربية إلا ما يوافق نشأتهم وتربيتهم الدينية ويمثلون العقلية المتقدمة الحائرة ويتجهون فى إصلاحهم الى تحسين حالة الأزهر العلمية وبث بعض الثقافات الغربية التى لا تتنافى مع الدين بين الأزهريين . وهم أصحاب البعوث الأجنبية كالدكتور الشيخ محمد البهى والشيخ الدكتور عبد الحليم محمود وغيرهما .

(ح) أحرار : لا مراء فى أن ابحاث الأحرار من رجال الدين تختلف عن غيرهم من سائر طوائف الباحثين والمصلحين وذلك لأنهم لا يخدعون بزخرف الأقوال ولا يسايرون السطحية فى الأعمال . بل هم يبحثون عن الجذور والأسباب المنعكسة من ظاهر المجتمع حتى تأخذ إصلاحاتهم الصبغة الواقعية . وبذا يتفادون الوقوع فى الاخطاء التى تعرض لها بقية المصلحين الذين ينظرون الى الأزهر كشىء منفصل عن المجتمع الذى نعيش فيه .

وفى الواقع أن مشكلة الأزهر يجب أن لا تفصل عن مشاكل المجتمع المصرى ومشكلة التعليم فى الأزهر ما هى الا جزء من المشكلة التعليمية العامة .

ومن الاخطاء التى تلجأ اليها الرجعية المصرية فى التعليم أنهم يتجهون الى دراسة التعليم باعتباره أداة منفصلة عن المجتمع الذى يوجد فيه وأن التعليم فى الأزهر يمكن له أن يرقى فيما لو اعتمد على نهضات روحية وابراز كامن الأخلاق وبعث المثل العليا بواسطة الألفاظ المنمقة ، والعبارات المزخرفة التى تلقى بواسطة الرجعيين فى خطبهم

وكتبهم ونشراتهم مع علمنا بأن الحقائق المستمدة من الدراسة التاريخية الصحيحة تؤكد أن طريقتهم عقيمة وتفكيرهم معوج . إذا أن تطور المجتمع فى عمومه وتقدم التعليم بصفة خاصة يتبع التطور فى الأحوال الاقتصادية لهذا المجتمع .

ان الانحلال والفساد الواقع فى التعليم المصرى عموما فالأزهر خصوصا ما هو الا انعكاس للتفكك والاضطراب السياسى وهذا التأخر والانفكاك السياسى انعكاس يدوره للفساد والفوضى والانحلال الاقتصادى فى هذه البلاد فنحن فى مصر مازلنا فى زراعتنا نستعمل أساليب قدماء المصريين الأولية وأنت ما تزال تنظر فى مصر المحراث والفأس والسكر الأحمر والحلويات المصنوعة من العسل الاسود مما يذكرنا بعهد الانسان فى عصور الاقطاع والعبودية .

والمتتبع لحركة الازهر العلمية . يجد أنها خاضعة فى سيرها وتطورها لظروف حياتنا ففى اللحظة التى كان الاقتصاد المصرى يخضع فيها لنظام الاقطاع كانت الحركة العلمية فى مصر ترمى الى اخراج طائفة من العلماء يشبهون رجال الاقطاع فى أقليتهم مع تحكمهم فى العبيد الاقطاعيين وكانت السياسة التى يرمى اليها التعليم فى ذلك الوقت الحد من التعليم والانصراف به الى الناحية الروحية .

وفى المدة التى انتقل فيها المجتمع المصرى إلى الرأسمالية وتقدم الاقتصاد المصرى واتجهت نظرة الاحتلال إلى اخراج جماعة من المتعلمين للوظائف الحكومية وأعمال الادارة تحولت النظرة الازهرية تبعا لذلك إلى اخراج جماعة لتتولى المناصب التى استجدت فى البلاد وأصبح الناس فى الازهر يأملون فى الوظائف والمناصب واتجهت سياسة الازهريين إلى جعل الازهر معهدا للتخريج والتوظيف مع فساد البرامج الازهرية والطرق التدريسية حتى تكدس المتخرجون وعم البلاد بحوار الجيش العاطل من الفلاحين والعمال والطلاب جيش من الازهريين العاطلين .

أما فى أيامنا الحالية فان خضوع الاقتصاد المصرى لسياسة الاستعمار وانحلال الاداة الحكومية وفسادها يجعل النظرة التعليمية لا تخرج فى اتجاهها عن أيام الاحتلال من اخراج جماعات للتوظيف من غير وظائف كما أن التفكك والانحلال السائد فى الطلبة الازهريين وظهور روح العصبة القبلية بين أبناء الوجهين القبلى

والجرى وارتماء بعض رجال الدين فى أحضان الاحزاب الرجعية إلى غير ذلك من أنواع الفساد والفوضى فى الازهر يعزى أساسيا الى التفكك الفكرى العام الذى يتغلغل فى سائر نحواحى الحياة نتيجة التفكك الاقتصادى .

ثم إن الحياة التى تحياها الهيئات المتعلمة فى الازهر مضطربة فقيرة فى مستواها العام

والآن وقد بدأ المجتمع المصرى يتطور تطورا طبقيا واضحا بينما وجدت فى البلاد بعض الاموال والمواد الخام التى تمكنها من السير وانشاء بعض الصناعات التى تحتاج اليها ووجود حركات عمالية وسياسية متقدمة كل هذا يجعل التيار الفكرى فى الازهر متجها اتجاه التطور الاجتماعى والسياسى والعلمى . وسيتبع ذلك تغير فى الاتجاه التعليمى فى الازهر وفى غيره حتما .

ونحن رجال الدين الاحرار — ننظر فى منهجنا الاصلاحى التعليمى الى ناحية التطور الاجتماعى الذى تجتازه البلاد فى هذه الاوقات والى الناحية الديموقراطيه فى الميدان السياسى . وندعو الى التوسع فى تطبيق الديموقراطيه التى تسعى اليها الشعوب فى سائر أنحاء العالم . . ونؤمن أن أهلنا ومواطنينا واخواننا ان يتمتعوا بتعليم صحيح إلا اذا ضمنت لهم حياة ديموقراطية حقه .فالواجب علينا أن نراعى فى اصلاحنا للازهر ناحية التطور الاجتماعى والديموقراطى .فنعمل على توسيع معاهد التعليم فى البلاد وتنويع المواد التى تدرس فى الأزهر فلا نقتصر على الفقه والنحو والتوحيد وعلوم الدين بل يجب أن ندرس إلى جانب ذلك كل ما يتعلق بالعلوم الزراعية والصناعية التى تحتاجها البلاد وتتطلبها الحياة فلا يقتصر الأزهر على كليات أصول الدين والشريعة واللغة العربية بل عليه أن تكون له كليات للطب والهندسة والتجارة والصناعة وأن تدرس علوم التاريخ والمذاهب الاجتماعية والسياسية ونحن نعلم أن الاسلام لم يطلب منا إخراج الأئمة للوعظ والإرشاد بل طلب منا أن نعمل للدين والدنيا وأن نرشد ونعمل لدنيانا كأننا نعيش أبدا ولآخرتنا كأننا نموت غدا ، وأن نحسن ولا ننسى نصيبنا من الدنيا .

والناظر فى الاسلام يرى أنه فى جميع أوامره ونواهيه يجمع بين الناحيتين الفكرية والمادية وكل ما ورد من القرآن فهو إما لتنظيم العلاقة بين العبد والرب أو بين

الانسان والانسان . فمن الخطل والجهل أن نقف عند حدالروحيات وتملأ الأزهر بجماعات تتعلم العلوم النظرية ثم تأتى بعد أن تقضى عمرها فى تعليم الكلمات المعقدة لتسأل الدولة ثمن الحياة .

فيا أيها الأزهريون . . . أيها الوعاظ والخطباء فى المساجد . . . يارجال الدين أنتم أبناء الشعب وأخوة الكادحين . أنتم أبناء العمال وسلالة الفلاحين . أنتم حملة المشاعل فى الريف وقادة الفقراء . أنتم أبناء الذين أريقت دماؤهم وألهبت السياط ظهورهم من قديم التاريخ . أنتم أبناء الذين صنعوا الحياة فسابوها وخلقوا القوة ليحرموها أنتم أبناء الحياة وأنتم من خير ما فى الحياة .

يا أبناء الأزهر . الفقر . الجهل . المرض . أمراض ثلاثة تنخر فى جسوم آبائكم وإخوانكم وعشيرتكم وأقاربكم . وهم لايعلمون لجهلهم ما أسبابها ومادوافعها .

فاعملوا جهدكم على تفهيمهم أسبابها وتعليمهم مكافحتها وأفهموهم أن عدوهم الأول الاستعمار وأن أنصاره وأذنابه من الرجعيين يريدون إبقاءه فى مصر كى ينعموا على حساب الشعب .

يارجال الأزهر تقدموا مع المثقفين المخلصين الصفوف انفثوا فى الشعب روح الخلاص واعملوا على تحطيم قوى الشر ودحر الاستعمار .

يارجال الدين . حياة أهلنا وإخواننا وحياتنا لاتصلح بغير الحرية والاستقلال والاستقلال لا يأتى إلا بالكفاح الشعبى الديمقراطى — فقفوا مع الشعب وأيدوا نضاله الديمقراطى ، وخذوا نصيبكم من هذا الجهاد التاريخى — كما أخذ آباؤكم وأسلافكم من قبل — وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) .

يا أيها الأزهريون . يحاكما لأحرار لأنهم يريدون أن ينيروا الأذهان وتمرقل الهيئات الديمقراطية لأنها أخطر قوة على الاستعمار . . . فأيدوا الأحرار فى كفاحهم وأيدوا الهيئات الشعبية فى نضالها . واهتفوا معى

ليسقط الاستعمار

ويحيا الشعب المصرى حرا ؟